

الذي سبقت من أجله ، وحمل معناها يدور قلبي ويساوره حتى كفت يدي عن الحركة ، وسكن بصرى على مكانها ، وأحسنت كأن القدر قد نام في ظلالها كالسارد الثمل طرحه طغيان السكر حيث استقر ، وأطاف بنفسى جو من السكون والرهبة والجلال ، وأخذت أستغرق في تأمل هذه الحياة المتكررة المتطاولة الدائبة منذ عهد أينا الشيخ آدم رحمه الله إلى يوم الناس هذا . فآنت فترة تأخذني ، ثم نمسة تنشأني ، وسبحت في غمرة طويلة لذيدة لا عهد لي بمثلا منذ عقلت .

وإذا لمنا أفضى من غمرتي إلى ميدان فسيح أخضر الجوانب متراحب الأرجاء ، وإذا مسجد بعيد يستقبلني كأحسن ما رأيت من مسجد بناء وبهاء ، قد تباعدت أركانه وتسامت في جو السماء مآذنه ، ويبرق بابه ويتلأل شعاع الشمس عليه . فقصدت قصده ، ولم أك دأنو حتى رأيت جموعاً غفيرة من الخلق يستقبلون الباب خارجين ، في ثياب بيض وعمائم بيض كأنها غمام ترجيه الرياح . فوقففت وسألت أول من لقيت : ما الذي جمع الناس ؟ قال : إنه الشيخ أبيها الفتى . قلت : فن الشيخ يرحمك الله ؟ قال : غريب والله ، إنه الشيخ أبو جعفر الطبري إمام أهل السنة ، وشيخ المفسرين ، وعمدة المحدثين ، وثقة المؤرخين ، رد الله غربتك يا فتى . قلت له : جزاك الله خيراً ورضى عنك وأرضاك ، أتراني أدركه الساعة ؟ قال : هو رهين هذا المسجد لا يرحه ، فادخل تلقه .

ولم أزل أحتال للدخول وأمواج الناس تتقاذفني عن الباب حتى كدت أياأس من لقاء الشيخ ، وظننت أني لو بقيت دهماً لم تنقطع هذه الأمواج المتدفقة من باب المسجد . وظللت أزاحم حتى بلغ مني الجهد ، وانتهيت إلى صحن المسجد وقد انفض جمع الناس ، ولم يبق فيه غيري . وجعلت أسير وأتلفت وأنظر في مقصورة بمد مقصورة ، حتى رأيت بصيصاً من ضوء في مقصورة بعيدة ، فلما وافتيتها ، وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، رأيت مسرجة معلقة وحجرة راسمة ، وآلاف مؤلفة من الكتب قد غطت الجدران . فاستأذنت ثم سلمت فلم أسمع مجيباً ، فدخلت ، وإذا في جانب منها شيخ ضاني اللحية أبيضها جميل الوجه ، قد اتكأ وأخذته سنة من نوم ، وقد مالت عمامته عن جبينه يلعب كأنه سنفة مصقولة من ذهب ، وبين يديه كتب وأوراق مبعثرة

مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهَا

للأستاذ محمود محمد شاكر



أخي الأستاذ
الزيات :

السلام عليكم
ورحمة الله ، وبعد ،
فقد أكرمتني
ودعوتني لكتابة
مقالتي لعدد الهجرة
من الرسالة ، فجعلت
أماطل الساعات
كمادتي حتى
تضطررتي إلى مآزق

أجد عنده مقرأ من حمل القلم ، والإكباب على الورق ، وترك الزمن يبدو على وأنا قارئ في مكان لا يتغير وزمان لا يتحول . فلما كارب الوقت وأزفت الساعة ، فرعت إلى ذلك الكتاب القديم الذي طال عهد « الرسالة » به ، وهو « مذكرات عمر بن أبي ربيعة » ، حملت الكتاب حريصاً عليه ، ووضعت على الكتب بين يدي ، وترقت بصفحاته وأنا أقلبه كما يقلب العاشق المهجور تاريخاً مضى من آلام قلبه . ووقفت على ورقة حائلة اللون قد تحرمتها الجلي ، وإذا فيها هذه الأبيات الثلاثة ، لم ينل منها شيء ، لا تزال ظاهرة السواد بينة الباطع :

« فصرف الدهر في أطباقه خلفة فيها ارتفاع وانحدار
بيننا الناس على عيائها إذ هو وأ في هوة منها فناروا
إنما نمسة قوم متئمة وحياء المرء توب مستمار »
لم أدر لم نقل « عمر بن أبي ربيعة » هذه الأبيات في مذكراته ، فإنها قائمة وحدها ليس قبلها ولا بعدها شيء يدل على ما أراد من ذكرها ، فجعلت أدور الأوراق لملأ أبلغ ميلنا من توهم خيرها

عليهم في شيء، ألفوه ولم ينكروه . فإذا دام دخول اليهود فلسطين ، وبقي الأمر مسنداً إلى الدولة المنتدبة (وهي بريطانيا) ، وانفسح لفتح اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجح ، وألح على العرب دائماً إجماع الدنيا كلها (أي الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية في فلسطين حقيقة ينبغي أن تكون وأن تتم كما أراد الله ، فيومئذ يلقى العرب السلم ، ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشئهم على ألف شيء . قد صبر عليه آباؤهم ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة في تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم — وهم عند العرب والمسلمين — أهل القدوة .

وفي هذه السنة كتب إلى السدي أيضاً يقول إنه لقي أحد كبار الدعاة من اليهود ، وكان لا يعرفه ، فحدثه عن أمر اليهود في فلسطين ، فقال له الداعي اليهودي : لا تُرْع ، فنحن لا بدّ منتهون إلى ما أردنا ، رضى العرب أم أبوا . وما ظنك بقوم كالعرب خير الحياة عندهم النساء ، وقد قال نبيهم : « حُبِّبَ إِلَى مَنْ دُنِيَ كَمِ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ ، وَجَمَلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ، ولقد سلطنا عليهم بنات صهيون ، وهن من تعلم جمالا ورقة ، وأبداناً تجرى الحياة فيها كأنها تبع صافٍ يتفجر من صفاء شفاقة كالبلور . وهن بنات صهيون دلال وفتنة ، وعطر يساور القلوب فيسكرها ويذهلها ثم يفرقها في لثة بضن الرء بنفسه أن يصحو من خمارها أو نشوتها ، منصرفاً عن أمر الدنيا كله لا عن الصلاة وحدها التي جملة قرة لعين نبيهم . فهن في فلسطين ، وهن في الشام ، وهن في مصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ، ولولا تلك البقعة المصيبة التي لا تزال نخشى بأسها على ضمها وقتلها وفقرها — أعنى الحجاز وما جاوره — لقلت لك : لقد قضينا على هذه العرب ، وعلى هذا الدين الدخيل الذي سرق منا التوحيد وأدعاه لنفسه ...

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما ظهر فيها من الأهرام :

فمن ذلك ما كان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم بعد الحج من السنة التي قبلها ، اجتمعوا في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرّ قرارهم على أن يملنوا للناس جيماً وينذروهم بما

أو مراكومة ومغار وأقلام .

سرفت الخطو حتى فت بين يدي هذا الشيخ النائم ، ثم جلست وجملت أقدم ثم أحجم أريد أن أمسك شيئاً من ورقه لأفراه ، ثم عزمت فأخذت ما وقعت عليه يدي ، فإذا هو تنمة تاريخ أبي جعفر الطبري الذي كان سماه « تاريخ الأمم والملوك » ، وكان الجزء الذي فيه يبدأ من سنة خمس وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة (سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٤٦م) ، فانطلقت أقرأ تاريخ هذا الزمن وما بعده . وعسير أن أنتقل لك كل ما قرأت ، فسأختار لك منها تفقاً تنفي ، كما كتبها الإمام أبو جعفر ، وبعضها منقول بيّانه ، وبعضها اختصرت منه حتى لا أطيل عليك . قال أبو جعفر :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما ظهر فيها من الأهرام :

فمن ذلك ما كان من إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح أبواب فلسطين لشذاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلى السدي ، وهو مقيم هناك في أمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذي كان ادعاه من إيثارة العقل على الهوى في هذا الأمر ، إنما كان حيلة مخبوءة أراد بها أن يفر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو في ذلك إنما يعمل للظفر بمخونة اليهود في الانتخاب الآتي للرئاسة . ولما كان هولاء هو الذي يُصرفه ، فقد علم أنه طامع في الرئاسة حريص عليها ، وأن اليهود في أمريكا هم أهل المال ، أي أهل السلطان ، أي هم الأنصار الذين إذا خذلوه فقد ضاع . قال السدي : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى في أمريكا يستنكرون ما كان منه ومن قرار مجلسيه ، ويرون أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ، ليلبغ بها القوى مأربه من الضميف المبرور بهذه الرقية الساحرة التي يدندنون بها في الآذان . وقد أخبرني الثقة أن الرئيس ترومان قد أوحى إليه بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قوم أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويكبح فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون في أنفسهم قوة على تنفيره أو الانتقاص عليه ، وأن الزمن إذا تطاول

رأوا وبما أجمعوا عليه :

الأول : أن ميثاق الأطلسي ومواثيق الدول الكبرى كلها تقرير بالضعفاء وتلمب بمقولهم .

الثاني : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورأسها بلاد العرب والمسلمين جميعاً تظاهرها بالمال والولد .

الثالث : أن الفتك والغدر والاعتقال ليس من شعبة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاعتقال الشنيعة التكررة التي اقترفها اليهود ينبغي أن تقابل بالصدق والبصراحة لا بالنيالة والغدر .

الرابع : أن الأمم العربية والإسلامية تعلم أن ليس لديها اليوم من السلاح ما يكفي لقتال الأمم المتعدية التي تظاهر اليهود بالمال والسلاح ، ولكنها ستقف كلها على بكرة أبيها صفاً واحداً تقابل بما تصل إليه يدها من مقاطعة ومناوذة وكبرياء . وإنما تفعل ذلك ما استطاعت ، ولكنها لن تظلم يهودياً ولا نصرانياً ولا أحداً من أهل الأديان ، ولن تضطهد بريئاً ولا لاجئاً ، وأنها لن تقنع بشيء بعد اليوم إلا بجلاء المتدين والستمرين من بلادها ، وجلاء اليهود عن أرض فلسطين ، ومن شاء أن يبقى فيها من يهود ، فله ما لنا وعليه ما علينا .

الخامس : أن الأمم العربية والإسلامية قد عازمت على أن تبدأ منذ هذا اليوم في انتخاب مجلس عام تمثل فيه جميعاً ، وهذا المجلس هو الذي سيضع الدستور العام للدول العربية والإسلامية ، حتى إذا تمَّ وحدت هذه الدول سياستها الداخلية والخارجية ، وصارت يداً واحدة في العمل ، لتفادى بذلك اتحاد الأمم الديمقراطية الغربية ، التي لم تزل تريد أن تحمل الشرق سوقاً وأهله عبداً .

[ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما طار فيها من الأحداث :

ففيها أراد اليهود في بعض البلاد العربية أن يظاهروا لإخوانهم في فلسطين ، فأجمعوا على جعل يوم السبت كله منذ الصباح يوم عطلة فأغلقتوا دكاكينهم ، ورفعوا عليها أعلام الدولة الصهيونية

المجتزئة ، واجتمعوا في بيئهم وجموا مالا كثيراً بلغ عشرين مليوناً من الجنيهات لمساعدة المصانع التي كادت تغلق أبوابها من جراء المقاطعة التامة التي أحسنت الأمم العربية توجيهها وتديرها . ومما كان من ذلك في هذه السنة اجتماع المؤتمر العام لنساء العرب في دمشق ، وقد قررن أن تعود المرأة إلى بيتها عاملة على إنشاء جيل من البنين والبنات لم تفسده الشهوة التي استبدت بالناس في تقليد ذلك الفجور القبيح الذي عملت يهود على نشره في بلادهم من زينة وتبرج ورقص وتحلل من أخلاق السلف ، وذلك لكثرة ما وقع من حوادث هدمت بيوتاً عزيزة وأسرأ كريمة ، وأفضت إلى ضروب من المآسى لم يطق أحد عليها صبراً . وفيها أيضاً اجتمعت الصحف العربية والهندية الإسلامية والتركية والفارسية مقاطعة الإعلان اليهودي . وكل صحيفة تخالف هذا الإجماع يحجى اسمها واسم رئيس تحريرها ومحرميها من سجل نقابة الصحافة ، ولا تفسح لأحد منهم فرصة حتى يعمل في صحيفة أخرى بعد هذه المخالفة .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما طار فيها من الأحداث :

اشتملت نيران الحروب في الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية في مكة المكرمة ووحدوا قيادة الجيوش العربية ، ولكن لم يلبث سفير بريطانيا في مصر وسفير أمريكا أن أرسلا رقية إلى المجتمعين في مكة يطلبون وقف الحركات الحربية التي سموها (ثورة) ، ورجعوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسة الروسية التي تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين .

وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التي يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا ، لن تتدخل في الخلاف الناشب بين الفريقين ،

شديداً في جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغي على الدول جميعاً أن
تضحي في سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهي قيود اليهودية
التي جعلت كل الأمم ترسف في أغلالها ...

[ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما لاه فيها من الأهراء :

كتب إلى السيدى يقول : إن أمريكا قد قررت إجلاء اليهود
من أرضها كلها ، وأن تستصفي أموالهم ، ولا يبقى فيها إلا علماء
اليهود وحدهم إن شاءوا . ومن المنتظر أن تفعل بريطانيا وسواها
من الدول مثل ما فعلت أمريكا .

وفيها نار العمال اليهود في فلسطين على أصحاب المصانع اليهودية ،
وذلك من جراء بوار أكثر التجارة اليهودية التي نهبتها المقاطعة
العامة في بلاد العرب والمسلمين ، ولقلة الأجور ، ولكن الحكومة
اليهودية ضبطت الأمر وبذلت الأموال ، وجنّدت جيوشاً عظيمة
المدد والعدد . وحدثت أحداث عظيمة في أكثر بقاع الأرض .
حتى وقع التناوب بين الدول الكبيرة التي لا يزال لليهود فيها
سلطان عظيم .

وأخوف ما يخاف أن تقع في هذه السنة حرب عالمية تستخدم
فيها جميع الأسلحة الجديدة التي يخشى أن تكون على العالم
دماراً وخراباً .

واستيقظ الشيخ من غفوته ، ونظر إلى نظرة التمتع ،
وقال من أنت ؟ وما تفعل ؟ فانتبهت فزعاً ، وإذا أنا أقرأ في تفسير
الشيخ أبي جعفر الطبرى تفسير قوله تعالى : « وقالت اليهود
يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه
مبسوطتان يُنفق كيف يشاء ، وليريدن كثيراً منهم
ما أنزل إليك طغياناً وكفراً ، والقينا بينهم المداوة والبغضاء
إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون
في الأرض فساداً والله لا يحبّ المفسدين » .

محمود محمد شاكر

وأن الدولتين الكبيرتين ستمنمان كل مساعدة تُرسل من بلادها
إلى فلسطين . من مال أو سلاح ...

[ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما لاه فيها من الأهراء :

تمّ استخدام النرّة وانفلاقها في كل شيء ، وحدث في
زراعة البلاد انقلاب عظيم ، إذ أصبح من اليسير استنبات نبات
الصيف في الشتاء ، ونبات الشتاء في الصيف . وقد بدأ ملوك
العرب أعظم عمل في التاريخ ، وهو استخدام أسلوب جديد يحول
الرمال العاقرة إلى أرض خصب وافرة الزرع ، وقد نفذ هذا
في جزء كبير من صحراء جزيرة العرب . أما في مصر والسودان ،
فقد تمّ توزيع ماء النيل وضبطه حتى لا يضيع من مائه إلا أقل
قدر ، وبذلك أتيج لمصر أن تنشى ثلاثة فروع جديدة شقّتها
في الصحراء الشرقية حتى أفضت إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) ،
وصار ما بينها أرضاً مهيمة ذات خصب . وبذلك سيتاح لمصر أن
يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً من الأنفس في أقل من عشرين
سنة .

ومما كان من ذلك نهضة عامة في سياسة البلاد العربية ، جعلت
الرأى العام العالمى يناصر القضية العربية مناصرة تامة في أكثر
بقاع الأرض ...

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بعد الألف]

ذكر ما لاه فيها من الأهراء :

كثرت حوادث الاغتيال والفتك في كثير من البلاد
العربية والأجنبية ، وقُتل من العرب وأنصار العرب من سائر
الأمم خلق كثير ، واستفحل الشر استفحالا عظيماً ، حتى ثارت
المصحف الإنجليزية والأمريكية ومطالبت حكوماتها بإعلان قرار
واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة في سبيل السلام
تقتضى أن تبذل النصر الكاملة للعرب وللقضية العربية ،
وأن تتعاون الدول على ردّ المدوان الصهيونى الذى غاب طغياناً